الدور الاقتصادى لخدمة الطوافة والمتطوفين بالمملكة العربية السعودية

أحمد كمال محمد مراد

مقدمة:

إن الدور الاقتصادى الذى تقوم به المملكة العربية السعودية لخدمة الطوافة والمتطوفين دليلا على أن الله اختارهم لهذا العمل الجليل، فإن أنظمة الطوافة فى تغير متواصل للظروف السياسة والاقتصادية في المنطقة تاريخياً، إن كانت أرفف المكتبات تحمل بدواخلها كتبا ، ومراجع تاريخية تحكي عبر صفحاتها تاريخ أم القرى منذ أن وطأت أقدام الخليل إبراهيم عليه السلام وزوجه هاجر والرضيع إسماعيل ترابها ليشكلوا البداية الأولى لسكان بواد غير ذي زرع عند البيت الحرام، فإن الفترات الزمنية التي مضت حملت الكثير من الأحداث التاريخية عن مكة المكرمة؛ حيث يشكل الحج الركن الخامس من الإسلام بتجمع الحجيج وانطلاقتهم صوب المشاعر المقدسة اهتماما خاصا لدى حكام مكة المكرمة.

ومع توحيد أجزاء الجزيرة العربية على يد الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود- رحمه الله - كانت الخطوة الحقيقية للقضاء على المعاناة التي عاشها حجاج بيت الله الحرام طوال سنوات مضت، فكانت أولى التنظيمات متمثلة في الإبقاء على مقدمي الخدمات للحجاج من مطوفين وزمازمة ووكلاء وأدلاء، إذ صدر المرسوم الملكي في ربيع الأول عام ١٣٤٣هـ بالإبقاء على الطوافة كمهنة لأبناء مكة المكرمة، وأوضحت ذلك المادة الرابعة من المرسوم الذي نشر بجريدة أم القرى بعددها الأول الصادر يوم الجمعة الموافق ١٥ جمادى الأولى ١٣٤٣هـ تحت عنوان (هذا بلاغ) وأشارت المادة الرابعة من المرسوم الملكي على ما يلي: (كل من كان من العلماء في هذه الديار أو موظفي الحرم الشريف أو المطوفين ذو راتب معين فهو له على ماكان عليه من قبل إن لم نزده فلا ننقصه شيئا، إلا رجلا أقام الناس عليه الحجة أنه لا يصلح لما هو قائم عليه، فذلك ممنوع مما كان له من قبل وكذلك كل من كان له حق ثابت سابق في بيت مال المسلمين أعطيناه منه ولم ننقصه منه شيئا).

أما في نظام المؤسسات الحالية فقد وجد الكثير من أعضاء هذه المؤسسات وظائف يشتغلون بها طوال العام في شركات خاصة ومؤسسات حكومية صناعية وتجارية

وأصبحوا يعملون في مؤسسات الحج فقط عند حلول الموسم لقاء أجر مقطوع لهم المؤسسة عن عملهم في خدمة حجيج المؤسسة . والطوافة مرتبطة وملازمة للحج وستبقى ما بقي .. تتبدل وتتغير صفتها وأسلوبها ، ولكن مهنه باقية ما حج مسلم إلى بيت الله ، ويبرز الدور الذى تقوم به المملكة اقتصاديا لخدمة الحجاج.

ويشتمل البحث على مقدمة ، ومبحثين، وهما:

المبحث الأول: الإنفاق على مؤسسات الطوافة.

المبحث الثانى: دور آل سعود الاقتصادى لخدمة الحجاج .

المبحث الاول: الإنفاق على مؤسسات الطوافة

الطوافة وشرف المهنة والعاملين بها:

الطوافة تاريخ مكي متسلسل ومتصل، أصل لمفاهيم الرفادة والضيافة على إلى مستوياتها، وقدم مكة كأنموذج متفرد يحاكي جماليات المشهد المكي بكل تفاصيله، بل وسجل تاريخيا مفاصل مراحل العاصمة المقدسة عبر مئات القرون التي ظلت فيها مكة تتنسم دور الريادة في الرفادة والسقاية سبعمائة عام أو يزيدون، كان العمر الزمني الذي عاشته مهنة الطوافة في مكة، مر فيه خط سيرها بكثير من التعرجات التي قادتها تحت الانضواء في العمل المؤسسي ، بعد أن كانت موصولة ببعض الأسر المكية. إنها مهنة لم يكن يختص بها أحد من عامة الناس في ثنايا التاريخ الماضي، بل كانت صفة تمنح لكبار العلماء والفقهاء باعتبارها مهمة عظيمة وجسيمة لا يحق لأحد أن ينضوي تحتها، بحكم أن المطوف كان منزله موئلا للدراسات العلمية، ومعرفة أهم المسائل الفقهية والشرعية التي يتعرض لها الحجاج والمعتمرون، وتعتبر مهنة الطوافة من المهن المتوارثة أبا عن جد، وكان للمرأة المكية دور كبير في خدمة ضيوف الرحمن، ويشترك في خدمة ضيوف الرحمن كل أفراد الأسرة، فيقدمون كل ما يحتاجه الحاج من خدمات على أكمل وجه، وقد أثبتت المرأة المكية جدارة في أداء مهمتها كمطوفة.

إن السبب في وجود مهنة الطوافة هو وجود طائفة من الوافدين الذين أقاموا بمكة من شتى أنحاء دول العالم الإسلامي واحتفظوا بلغتهم الأم مع إتقانهم للعربية، فكانوا يلجؤون إليهم بسبب سهولة التفاهم، وبمرور الوقت اتسعت الخدمات المقدسة لقاء أجر

يأخذونه، فأصبحوا يستقبلونهم في ميناء جدة إن كانوا قادمين بحرا، بل تعدى الأمر نحو ذهاب المطوف إلى البلد الذي يعود أصله إليه لجمع أكبر عدد من المعتمرين بغية تحجيجهم وتثقيفهم، كنوع من الدعاية، كما ظهر في الوقت نفسه ما يبدو تخصص مطوفين لجنسيات معينة مثل الجاوي والفارسي والتركي، والمغربي وغيرهم. ويتميز نشاط مؤسسات الطوافة بأن الغالبية العظمى من عملياتها تتم نقداً وبصورة سريعة مما يتطلب من النظام الاقتصادى أن يكون قادراً على التعامل مع هذه الخاصية.

اهتمام الحكومة السعودية بالإنفاق على المهنة:

أشارت المادة الرابعة من المرسوم الملكي فى عهد الملك عبدالعزيز آل سعود عن الدور الاقتصادى لموسم الحج ما يلي: (كل من كان من العلماء في هذه الديار أو موظفي الحرم الشريف أو المطوفين ذو راتب معين فهو له على ماكان عليه من قبل إن لم نزده فلا ننقصه شيئا، إلا رجلا أقام الناس عليه الحجة أنه لا يصلح لما هو قائم عليه، فذلك ممنوع مما كان له من قبل وكذلك كل من كان له حق ثابت سابق في بيت مال المسلمين أعطيناه منه ولم ننقصه منه شيئا).

درس مجلس الشورى السعودى مشروعاً؛ لإعادة مسؤولية إسكان الحجاج إلى مؤسسات الطوافة؛ للارتقاء بهذه الخدمات، وتوفير مصادر تمويل قوية للمؤسسات وتشير الدراسات إلى أن هناك أكثر من ملياري ريال يتم استثمارها في إسكان الحجاج سنوياً - حيث تسيطر بعثات الحجاج على هذه الخدمة - من خلال مندوبين من البعثات، يقومون باستئجار مقرات لحجاجهم من أصحاب الأبراج والعمارات السكنية المصرح لها في الحج والعمرة تزيد على ٦ آلاف مسكن، ومن اهتمام الحكومة السعودية بصرف مستحقات مؤسسات الطوافة، فقد أكد وزير الحج أياد أمين مدني، أن المقام السامي وافق على صرف مبلغ (٢٠٠) مليون ريال هي عبارة عن أرصدة متراكمة لأكثر من (٢٠) عاما لمؤسسات الطوافة.. وأنه تم الانتهاء من تدقيق هذه الحسابات، وسيتم الصرف بعد عطلة موسم حج هذا العام(١٤٢٤)، وإعادة المبالغ لكل مؤسسة والتي سوف تخصص فقط للمشاريع الاستثمارية وتطوير هذه المؤسسات وتحسين خدماتها. وأضاف في حوار اجرته معه (عكاظ) من مقر الوزارة بمشعر عرفات أن خطة التصعيد من منى إلى عرفات ونفرتهم إلى مزدلفة، ومن ثم إلى منى تمت خلال وقت قياسي، وأن حركة السيارات شهدت انسيابية وكفاءة عالية، مما يؤكد تضافر جهود الجهات المعنية بخدمة ضيوف الرحمن لراحة الحجيج وتوفير الراحة

لهم. وإن الربط الالكتروني أسهم في القضاء على مشكلة العقود الوهمية لحجاج الداخل.. وقامت الفرق الميدانية التابعة للوزارة تمكنت من ضبط (١٠٠) مؤسسة وهمية عام ١٤٢٤ وتمت إحالة أصحابها إلى إمارات المناطق للتحقيق معهم.

وغلبة الصفة الاحتكارية على نشاط هذه المؤسسات، ونشأت هذه الميزة بسبب تحديد دول معينة لكل مؤسس،ة بحيث تختص بخدمة حجاجها، ولا تستطيع أي مؤسسة الزيغ عن ذلك، ومن ثم يصعب مقارنة إيرادات أو مصروفات هذه المؤسسات –غير المحددة باللوائح – مثل الخدمات الأخرى التي يطلبها الحجاج وتقدم لهم من قبل المؤسسة بمقابل.

ومن المكاسب الاقتصادية التى يستفيد منها أصحاب مؤسسات الطوافة كشف مصدر مسؤول بمصلحة الزكاة والدخل أن المصلحة تعتزم تحصيل الزكاة من مؤسسات الطوافة. وأشار إلى أنه تجري الآن أعمال حصر لنشاط الطوافة وتحديد أولى الخطوات التي يمكن من خلالها تحصيل الزكاة. وأوضح المصدر في صريحات لـ"الوطن" أن مؤسسات الطوافة تزاول أنشطة خاضعة للزكاة وتحاسب على نشاطها وأن الزكاة ليست متوقفة على قطاعات الجهات الخاصة وإنما هي ركن من أركان الإسلام وتجب على جميع الأنشطة والقطاعات متى ما توفرت فيها الشروط والشرعية لتحقيقها.وأشار إلى أن المصلحة معنية بجباية الزكاة على عروض التجارة وكل ما يدخل ضمن عروض التجارة سيتم تحصيله على جميع الأنشطة.

يتسم نشاط مؤسسات الطوافة بالموسمية، فهو ليس نشاطاً ثابتاً في حجمه على مدار السنة، ويشير الدكتور / إحسان صالح المعتاز فى دراسته الميدانية الحسابية أنه يحتم ذلك ضرورة الاهتمام بتصميم نظام محاسبي مرن قادر على استيعاب، ومتابعة التعاملات المالية خلال فترة الذروة بنفس الكفاءة التي يتم بها إثبات ومراجعة تلك التعاملات خلال باقي الفترات الأخرى، مع ملاحظة أن هذه الخاصية تعني أن تركيز العمل يتم خلال فترة محددة من العام مما يترتب عليه: إتاحة الفرصة في حالة الاستثمار استثمار المبالغ التي تخصص للاحتياطيات، لكي تستثمر أكبر وقت ممكن من العام. ولا بد من تجميع الإيرادات خلال فترة محددة من الزمن قد لا تصل إلى ٤٠ يوماً وربما أكثر بقليل. وينفق الجزء الأكبر من المصروفات خلال فترة محددة من الزمن، قد لا تصل إلى ٩٠ يوماً. وتوجد أهمية ضبط ورقابة العمليات النقدية، الأمر الذي يظهر دور نظم الرقابة الداخلية بتلك المؤسسات.

المبحث الثانى: دور آل سعود الاقتصادى لخدمة الحجاج

الاهتمام بالطرق:

اهتمت المملكة العربية السعودية براحة الحجاج وتمثل هذا الاهتمام بالعناية بتحسين الطرق كاملة ليكون الحاج آمناً فى سيره على نفسه وماله، والاهتمام والعناية بصحته، ولا يحدث ويكتمل هذا الأمر إلا بمنظومة اقتصادية قام بها آل سعود الذين حباهم الله بخدمة بيته وزائريه. وأول من قام بتحسين الطرق لمكة الملك عبدالعزيز – رحمه الله - نظراً لما كان يعانيه الحجاج من مشقة وتعب لسوء حالة الطرق ، فقد اهتم بوسائل النقل ، وتعبيد الطرق ، وتسهيل السبل لخدمة ضيوف الرحمن سواء داخل المدن أو خارجها.

ووضعت المملكة برنامجاً لتوسيع تلك الشوارع لتيسير الحركة في شوارع مكة المكرمة ، وخاصة المتصلة منها بالمسجد الحرام، وتم إزالة كل ما يعيق حركة السير في الشوارع. وأصدر سمو الأمير فيصل – رحمه الله - أمره بإصلاح طريق تسير عليه السيارات في ذهابها إلى العمرة بحيث لا تتصل بالطريق العامة التي تسير منها المارة والقوافل.

لم تقتصر عناية آل سعود على رصف الشوارع أو توسعتها أو تظليلها وإزالة العوائق منها في مكة ، بل امتدت لتعنى بتظليل طريق مكة منى عرفة بمظلات توضع بالقرب من آبار المياه على جانبي الطريق لوقاية مشاة الحجاج وضعفائهم الذين يرغبون في الاستراحة من هجير الشمس. وقد أرسل الملك عبدالعزيز رواداً ؛ لكشف مكان صالح لفتح طريق واسع بين مكة – منى – عرفات علاوة على الطريق الحالية، على أن تمر من خارج منى منعاً للازدحام الشديد الذي يحدث في الطريق القديمة التي تخترق منى من منتصفها. وصدرت الأوامر بإنارة الطريق بين مكة ومنى بالكهرباء في سنة ١٣٥٤هـ/١٩٣٦م.

واهتماماً من الملك عبد العزيز بتعبيد طرق المواصلات وسفلتتها على قواعد فنية حديثة أصدر أوامره السنية بتشكيل هيئة تتولى القيام بشؤون طرق المواصلات وإصلاحها. وانتخبت الهيئة بعض أفرادها للقيام برحلات يتم فيها الكشف عن حالة الطرق لعمل الإصلاح المطلوب على ضوء التقارير التي ترفع منهم.

عملت حكومات آل سعود على تعبيد الطرق وسفلتتها خاصة بعد أن انتشر استعمال السيارات في نقل الحجاج. وكانت السيارات تسير جنباً إلى جنب مع قوافل الجمال في طريق جدة – مكة. ونظراً لما كانت تسببه تلك السيارات من إزعاج لقوافل الحجاج ونفور الجمال من صوتها وصفيرها، فقد ارتأت الحكومة تخصيص طريق لكل من السيارات والقوافل بحيث لا تجتمعان إلا في بحرة. وقد باشر العمال في إصلاح الطريق الجديدة التي للسيارات وتعبيدها ، ومن ثم تسير السيارات في طريق مكة – الوادي – بحرة – الطريق العام جدة ، وتسير القوافل في الطريق القديم – بحرة – الطريق الجديدة – جدة. وفى عهد الملك فهد زاد تطور الخدمات لتوسعة الطرق ووسائل النقل المتعددة لخدمة الحجاج.

الدور الاقتصادى وأثره فى خدمة الحرمين:

أخذ النمو الاقتصـادي والتجاري والعمراني في ازدياد مطَّرد ، وأصبحت مكة والمدينة تتسمان بالحيوية الاقتصادية والتجارية والعمرانية ، ولم يعد موسم الحج هو مصدر رزقها الرئيس، حتى أن الملك عبدالعزيز آل سعود – رحمه الله – من عنايته بالمدينتين الكريمتين وعطفه على المسلمين جميعاً حجاج بيت الله الحرام أصدر أمراً ملكياً عام ١٣٧١هـ بإلغاء رسوم الحج ، وإعفاء حجاج بيت الله الحرام منها، وقد كانت تقدر إيراداتها بمبلـغ ثلاثين مليون جنيه مصري (كان الجنيه المصري يساوي أكثر من ١٤ ريال). وهذا الإلغاء جاء دليلاً على تضحية الملك عبدالعزيز الصادقة في سبيل الله ، والإخلاص في خدمة الدين الحنيف.

تعتبر انطلاقة مشروعات توسعة الحرم المكي في العصر الحديث عام ١٣٤٤ه، أول اطلاقة اقتصادية لخدمة الحرم المكى ، حيث أمر الملك عبدالعزيز - طيب الله ثراه - بصيانة المسجد الحرام وإصلاحه، وفي مستهل عام ١٣٧٣ه أدخلت الكهرباء، وتمت إضاءة المسجد الحرام، ووضعت فيه المراوح الكهربائية، وفي العام نفسه ١٣٤٤هـ/١٩٢٦م أمر الملك عبدالعزيز بترميم أرجاء الحرم المكي كافة ، وكلف مدير الأوقاف الشيخ محمد سعيد أبو الخير بترخيم عموم المسجد ، وإصلاح كامل ما يقتضي إصلاحه من الخراب الواقع في جدر المسجد أرضه وأعمدته ، وإصلاح الممرات وحاشية المطاف والأبواب ، وتمت تلك الإصلاحات في وقت قياسي وقبل حلول موسم الحج ، كما تم تبليط المسعى بالحجر الصوان المربع .

وفي عام ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م أمر الملك عبدالعزيز بإنشاء سبيل للشاربين من ماء زمزم وجدد عمارة السبيل القديم، وفي عام ١٣٤٦هـ أيضاً أمر الملك عبدالعزيز وزير ماليته الشيخ عبدالله السليمان الحمدان بعمل مظلات على دائرة الحصوة في بيت الله الحرام ليستظل بها المصلون من حجاج بيت الله الحرام. كما تم في شهر ذي القعدة من عام ١٣٤٦هـ تركيب ماكينة كهربائية لإضاءة المسجد الحرام ، ولم يكتف الملك عبدالعزيز في عنايته ورعايته للمسجد الحرام بالنواحي العمرانية، بل نجده قد أهتم أيضاً بكل شؤون المسجد وواجباته ، فأمر في عام ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م بتأليف هيئة لمراقبة سير التعليم في المسجد الحرام برئاسة الشيخ عبدالله بن حسن آل الشيخ ، يعاونه تسعه أعضاء، كما شمل الأمر تعيين عدد من المدرسين ليقوموا بالتدريس فيه .

كما خصص الملك عبدالعزيز – رحمه الله – ميزانية للتعليم في المسجد الحرام ، وذلك في ٣ ربيع الأول من عام ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م بلغ مقدارها ١٣٢٠٠ قرش أميري، يصرف منها مرتبات المدرسين ومكافآتهم، كما خصص مبلغ١١٠٠٠ قرش أميري إعانات لمائتي طالب يدرسون في الحرم بمعدل نصف جنيه لكل طالب. كما كـان أول مخصص محدد للحرمين الشريفين في أول ميزانية عامة للدولة عام ١٣٥٠هـ التي أصدرت في غرة شعبان الموافق للثاني من ديسمبر لعام ١٩٣١م هو مبلغ ٢٠٤٨١٣٧ قرشـاً أميرياً، وكان المبلغ الإجمالي للميزانية العامة هو ١٠٦,٤٤٢,٥٤٤ قرشـاً.

وفي شهر ربيع الآخر من عام ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م تم تركيب ماكينة كهربائية ثانية وجديدة لزيادة الإضاءة في المسجد الحرام، كما أقيمت مظلات في الحرم لوقاية المصلين في موسم الحج.

أمر الملك عبدالعزيز بتوسعة المسجد النبوي الشريف وأصدر أوامره إلى الشيخ محمد عوض بن لادن لتنفيذ التوسعة، وصرف ما يحتاجه المشروع من نفقات دون قيد أو شرط، مع توسيع الطرق التي حول المسجد.

وفي الخامس من شوال لعام ١٣٧٠هـ/١٩٥١م بدء العمل في إزالة المباني المحيطة بالمسجد النبوي الشريف بعد نزع ملكيتها وتعويض أصحابها ، كما بدأ بحفر الأساس.

واصل الملك سعود إشرافه ومتابعته المباشرة لإتمام توسعة الحرم النبوي الشريف وبلغت الزيادة التي أضيفت لمساحة المسجد ٦٠٢٤م٢ بحيث أصبحت مساحة المسجد

الإجمالية هي: (١٦٣٢٧م٢).

وبعد وفاته - رحمه الله- واصل أبناؤه من بعده مسيرة تطوير وتجديد المسجد الحرام؛ ففي عهد الملك سعود - رحمه الله- استمرت عملية توسعة وتطوير المسجد الحرام على ثلاث مراحل من عام ١٣٧٥ه وحتى عام ١٣٨١ه، حيث أصبحت بعدها مساحة الحرم (١٩٣٠٠٠) متر مربع، وبلغت طاقته الاستيعابية (٤٠٠) ألف مصل.

في عهد الملك فيصل بن عبدالعزيز آل سعود رحمه الله ، كثر الإنفاق على توسعة المسجد النبوى في مساحة الأرض، ولم تمس البناء القائم من التوسعة السعودية الأولى، وهذه الزيادة المساحية تمت خارج جدران المسجد من الجهة الغربية بلغ مقدارها ٣٥٠٠٠م٢ ، ثم أضيف إليها ٥٥٥٠م٢ ، وجهزت تلك المساحة لإقامة مصلى كبير بعد وضع مظلات عليها ، وأصبحت مغطاة يتمكن المصلون من أداء الصلاة فيها. وفى عهد الملك خالد بلغت مساحة المسجد (٤٣٠٠٠م٢) ، وبذلك أصبحت مساحة المسجد الداخلية والخارجية (٩٩٨٧٧م٢).

وفي عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز - رحمه الله- استمرت عمليات التوسعة التي بدأت عام ١٤٠٩ه وشملت تجهيز الساحات الخارجية، وإدخال نظام التكييف، وإدخال أنظمة إطفاء الحرائق، وتصريف الأمطار، وغيرها من الخدمات الأخرى، وبلغت مساحة المسجد (٣٥٦٠٠٠) متر مربع، وطاقة استيعابية (٦٠٠) ألف مصل.

وظهرت الآثار الاقتصادية لمشروع توسعة خادم الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة منها: إن التعويضات المالية الكبيرة التي دفعت لأصحاب الأملاك أو الأوقاف منها أحدثت انتعاشاً اقتصادياً كبيراً وملموساً، حيث بدأت معه حركة عمرانية نشطة ارتفع معها سعر الأراضي إلى أرقام خيالية في بعض الأماكن خاصة ما كان منها قريباً للحرم. فمثلاً بلغ سعر المتر المربع في المنطقة المحيطة بالمسجد النبوي الشريف إلى (١٥٠ ألف ريال سعودي). كما بلغ ثمن إحدى الشقق السكنية في إحدى العمائر المنشأة حديثاً قريباً من الحرم بـ١٧مليون ريال سعودي. ، كما ظهرت مخططات لأحياء جديدة "حديثة".

إن هذه الحركة العمرانية النشطة أوجدت عملاً لكثير من العمال وإن كان أغلبهم غير سعوديين إلا أن ذلك مكن العديد من السعوديين من إتقان فهم بعض الحرف الفنية

وإجادتها ، كما أن العمل في التوسعة نفسها قد منح خبرة هائلة في عمليات التشييد والبناء ، وهذا أدى إلى ظهور قدرات سعودية وعربية للقيام بتصميم وتنفيذها، المشروعات العملاقة ، وهذا يعني أن قطاع المقاولات السعودي أثبت تواجده وقوته وضخامة حجمه.

إن مشروع التوسعة ساعد على قيام مصانع خاصة لبعض التجهيزات التي تحتاج إليها أعمال تلك التوسعة ، ومنها على سبيل المثال المصنع الذي أقيم لعمل الأحجار الصناعية اللازمة للبناء في منطقة آبار علي على بعد سبع كيلومتر غربي المدينة المنورة.

كما وجه الملك فهد - رحمه الله - بأن يعطى للمدينة المنورة ومكة المكرمة اهتماماً كاملاً بكل المرافق لتكون درة في منظومة هذه الدولة الإسلامية الظافرة ، ولذلك فقد حُدد موقع للمدينة الصناعية على مساحة عشرة ملايين متر مربع غرب طريق الهجرة السريع وعلى بعد ١٨كم من مسجد قباء، وقد بلغ عدد المصانع المنتجة في المدينة المنورة ما يزيد على ٦٧ مصنعاً.

إن مشروع التوسعة الكبرى أدى إلى بناء شبكة مواصلات كبرى وتطويرها، فبعد أن نُفِّذ طريق مكة المكرمة والمدينة المنورة، جدة السريع وبعد تنفيذ الخط الدائري الثاني بالمدينة المنورة الذي بلغت تكلفته ١٩٠مليون ريال ، كما أن نزع ملكيات الأراضي التي اخترقها هذا الطريق بلغت ٨٠٠ مليون ريال. واتسعت مساحة المدينة فى عهد الملك فهد من خمسة كيلو متراً مسطحاً إلى خمسمائة وتسع وثمانين كيلو متراً مربعاً . أما مكـــة المكرمـــة فقـــد قفزت مساحتها من ٥٠.٤٤ كم٢ عام ١٤٠٢هـ إلى ٩٢.٥٦ كم٢ عام ١٤١٥هـ .

وما أن جاء مشروعا التوسعتين للحرمين الشريفين فى عهد الملك فهد بن عبدالعزيز حتى أخذت المدينتان المقدستان وضعاً متقدماً من التطور الاقتصادي والتجاري والعمراني ، وتحسنت نتيجة لذلك الأوضاع المعيشية والسكنية للمواطنين فيهما. ولقد كان للتعويضات السخية التي صرفت للمواطنين ممن نزعت ملكيات عقاراتهم لصالح المشروعين أثرها الواضح خاصة إذا ما عرفنا حجم هذه التعويضات ومقدارها رقمياً ففي مكة المكرمة كانت مائة وخمسة مليارات ريال سعودي، وفي المدينة المنورة كانت حوالي ثلاث مليارات ثم وصلت إلى خمسة مليارات ريال. وقد كانت هذه المبالغ عاملاً حاسماً في تغيير البنية الاقتصادية والتجارية والعمرانية في المدينتين المقدستين.

أما في مكة المكرمة فقد بُوشر في عام ١٤٠١هـ/١٩٨١م تنفيذ مشروعات الأنفاق التي عُدَّت إنجازاً هندسياً عالياً ؛ نظراً لأنها تخترق الجبال.

كما نفذ مشروع نفق المناخة بالمدينة المنورة لنقل الحركة من الشمال إلى الجنوب وبالعكس ، كما عمل له مخارج جانبيه متعددة ، وقد بلغ طوله ١٠٠٦م ، ويتكون من اتجاهين شمالي وجنوبي عرض كل اتجاه ١٣.٤٠م ، ويتكون كل اتجاه من ثلاث مسارات، وقد زود النفق بغرفة مولدات احتياطية بها أربع مولدات إضافة إلى غرفة التحكم. كما أن للنفق تسع غرف لمراوح الشفط وثلاث غرف لمآخذ الهواء النقي ، وتعمل بصورة أتوماتيكية لتنقية الهواء داخل النفق ، وقد بلغت تكاليف هذا النفق حوالي مائة وعشرين مليون ريال.

ومن مشروعات الدولة في المدينة المنورة: مجمع المحاكم الشرعية بالمدينة المنورة، فقد أمر خادم الحرمين الشريفين بإنشاء مجمع للمحاكم الشرعية في موقع مميز مطل على ساحة الحرم النبوي الشريف من الجهة الجنوبية. وقد بُني على طراز معماري إسلامي بديع وعلى مساحة ٧٣٠٠م٢ ، وتكون من خمسة أدوار ، وبه تسع مصاعد وكل الخدمات من مستودعات وغرف حراسة وكهرباء وخزانات مياه وغيرها. وقد أُفتتح المبنى في الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول لعام ١٤٠٩هـ.

إنشاء مكتبة الملك عبدالعزيز على أحدث طراز إسلامي وجهزت بأحدث أثاث وأفضله بحيث أصبحت مكتبة يفتخر بها ، وتطل هذه المكتبة على ساحة المسجد النبوي الشريف من جهة الغرب ، وبلغت مساحتها ٢٣٠٠م٢، وتضم هذه المكتبة ١٣ مكتبة أوقفها أصحابها ، وكانت متفرقة.

مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة: فقد وضع خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود حجر أساسه في السادس عشر من شهر المحرم عام ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، وقال: "إننا نأمل أن يكون هذا المشروع خيراً وبركة لخدمة القرآن الكريم أولاً ولخدمة الإسلام والمسلمين ثانياً"، وفي عام ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م افتتح خادم الحرمين الشريفين هذا المشروع إيذاناً ببدء مرحلة التشغيل والإنتاج ، وقال بهذه المناسبة: "في هذا اليوم أجد ما كان حلماً يتحقق على أفضل مستوى ، ولذلك يجب على كل مواطن في المملكة العربية السعودية أن يشكر الله على هذه النعمة الكبرى، وأرجو الله أن يوفقني لخدمة ديني ثم وطني وجميع المسلمين".

وقد بلغ عدد العاملين في هذا المجمع ١٧٠٠ موظف ما بين إداري وفني وعمال عاديين، أما المطبعة فيعمل بها مائة وأربعون من المهندسين والموظفين والفنيين والعمال، وتبلغ طاقة المجمع الإنتاجية ثلاثين مليون مصحف في السنة، وقد بلغت تكاليف مشروع هذا المجمع ما يزيد على ألف مليون ريال..

قام خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بالقيام بأكبر مشروع لتوسعة المسجد الحرام في التاريخ ، بل إنه أكبر من كل التوسعات الاقتصادية بلغة الأرقام التي وجدت في التاريخ السعودى للحرم المكى ـ فإن الطاقة الاستيعابية لمساحة هذا المشروع تبلغ مرة ونصف بقدر الطاقة الاستيعابية للمساحة الحالية المتاحة للمصلين . ولا يقتصر الأمر على الحجم بل إن توجيهات خادم الحرمين الشريفين اقتضت بتوفير كل الوسائل المتاحة لكي يكون هذا العمل المبارك عند إتمامه مصدر فخر واعتزاز لكل مسلم .

ومع تزايد زوار بيت الله الحرام يوماً بعد يوم أصبحت مواصلة التطوير أمراً بالغ الأهمية، ولذلك أمر خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز- حفظه الله- البدء في مشروع توسعة جديدة إكمالاً لما بدأه الملك المؤسس - طيب الله ثراه -، فجاءت خطة التطوير التي تهدف إلى إحداث أكبر توسعة للحرم المكي الشريف، تتناول تطوير الحرم المكي الشريف في مختلف النواحي العمرانية والفنية والأمنية، في مدة زمنية حددت بسنتين من تاريخ تسليم الموقع خال من العوائق.

ولضخامة المشروع وتنوع أبعاده جعل من الضروري تقسيمه إلى ثلاثة أقسام، ويهدف القسم الأول إلى توسعة مبنى الحرم المكي؛ ليستوعب أكبر عدد ممكن من المصلين، ويتوقع أن تصل إلى مليوني مصل في وقت واحد، أمّا القسم الثاني فيهدف إلى توسعة وتطوير الساحات الخارجية للحرم المكي التي تضم دورات مياه، وممرات، وأنفاقاً، إضافة إلى مرافق أخرى مساندة، ومن شأن هذا القسم تسهيل دخول وخروج المصلين وزوار بيت الله الحرام، في حين يهدف القسم الثالث إلى تطوير منطقة الخدمات التي تعتبر إحدى أهم المرافق المساندة التي تشمل محطات التكييف، ومحطات الكهرباء، إضافة إلى محطات المياه وغيرها من المحطات التي تقدم الدعم لمنطقة الحرم، ويتوقع بعد اكتمال هذا المشروع المعماري العملاق أن تصل مساحة التوسعة إلى (١٥٠٠٠٠١) متر مربع.

وينطلق مشروع التوسعة الذي يعد الأكبر في تاريخ الحرمين الشريفين، من حدود الجهة الشمالية للمسجد الحرام، وتضم أجزاءً من الأحياء القديمة المحاذية للحرم المكي الشريف من ذات الجهة، مثل بعض الأجزاء من أحياء "المدعى" و"الشامية" و"القرارة"، إضافةً إلى المنطقة الممتدة من حي "المدعى" في الشمال الشرقي من المسجد الحرام إلى حي "الشامية" و"حارة الباب" في الجزء الشمالي الغربي من الحرم الشريف، وتبدأ التوسعة من شارع "المسجد الحرام" شرقاً وتتجه على شكل هلال، حتى شارع خالد بن الوليد غرباً في "الشبيكة"، إضافة إلى شوارع "المدعى" و"أبي سفيان" و"الراقوبة" و"عبدالله بن الزبير" في حي "الشامية"، وجزء من جبل "هندي" وشارع "جبل الكعبة"، وسيصبح إجمالي عدد المصلين بعد التوسعة الجديدة حوالي (١.٦٠٠.٠٠٠) مصلي.

ومن الجهود الاقتصادية رعى خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبد العزيز مشروع سقيا زمزم الذي وجه بإنشائه في منطقة كدي في مكة المكرمة؛ لضمان نقاوة مياه زمزم بأحدث الطرق العالمية إلى جانب تعبئته وتوزيعه آلياً، وبلغت كلفة المشروع ٧٠٠ مليون ريال. إن مصنع التعبئة يتكون من عدة مبانٍ منها: مبنى ضواغط الهواء، ومستودع عبوات المياه الخام، ومبنى خطوط الإنتاج، ومبنى مستودع العبوات المنتجة بطاقة تخزينية يومية تبلغ (٢٠٠) ألف عبوة ، والمساحة الكلية للمصنع تبلغ ١٣.٤٠٥ أمتار مربعة ، ويشمل المشروع مبنى المولدات الكهربائية الاحتياطية بطاقة (١٠) ميجاوات ويعمل بنظام (سكادا) الذي يمكن من التحكم والمراقبة لمراحل المشروع كافة، ابتداءً من ضخ المياه من البئر إلى آخر مراحل التعبئة.

إن المشروع يحتوي على مستودع آلي مركزي لتخزين وتوزيع العبوات المنتجة من مصنع التعبئة مجهز بأنظمة تكييف وأنظمة إنذار وإطفاء الحريق بتكلفة تبلغ أكثر من (٧٥) مليون ريال ، يمثل (١٥) مستوى لتخزين وتوزيع (٥ر١) مليون عبوة سعة (١٠) لترات".

إن هذا المشروع التاريخي المكلف تكلفة اقتصادية كبيرة ، الغرض منه رفع معانات الناس في الحج من الزحام والوصول إلى ماء زمزم وتوفير ظروف أفضل للسلامة والأمن .

الخاتمة

يرتكز أداء مؤسسات الطوافة في المقام الأول على العنصر البشري، متمثلاً في الاستقبال في الموانئ والانتقال من الميناء إلى مكة المكرمة والإرشاد والتوجيه والإشراف على الإسكان والتصعيد إلى المشاعر والإقامة بها ومتابعة حالات المرضى والمنومين بالمستشفيات ومتابعة الحجاج حتى مغادرتهم المملكة، ومن ثم فإن حسن المعاملة والأمانة والكفاءة في أداء العمل كلها أمور إنسانية تؤثر مباشرة في مستوى رضا الحجاج وانطباعهم عن المملكة وهذا يتطلب التدقيق في متابعة المتصلين اتصالاً مباشراً بالحجاج وتدريبهم لرفع كفاءتهم وتنمية خبراتهم.

ركزت فى بحثى على حجم الإنفاق على مهنة الطوافة وتتوسعة الحرمين الشريفين، والاهتمام بماء زمزم ، ولو وضعت هذه الأموال لبناء مدن بكل مرافقها ومستلزماتها، لغطتها هذه التكلفة. وهذا يعنى أن الحكومة السعودية تعمل بكل قوتها وطاقتها، لخدمة حجاج بيت الله الحرام ويتضح البعد الاقتصادى فى النواحى التالية:

أن توسعة الحرمين الشريفين قد شملت في بعدها الاقتصادي العديد من الجوانب المهمة ، فهو بهذا الإنفاق الهائل البالغ مئات المليارات السعودية ، الذي جرى بعضه في السوق السعودية أدى إلى شراء العديد من المنتجات المحلية الأمر الذي أسهم في زيادة الإنتاج وتوسيع نطاق السوق أمام تلك المنتجات المحلية. كما فُعِّل قطاع الصناعة والنقل من شحن وتفريغ وتخزين وغيرها الأمر الذي أدى إلى تشغيل أيادي عاملة كثيرة واكتسابها مع الناحية المادية الخبرة العملية.

أن هذه التوسعة العملاقة أدت إلى تخطيط عمراني شامل للمدينتين المقدستين مع ما استلزمه ذلك التخطيط من خدمات عامة– كهرباء– وماء– وصرف صحي– وحدائق وغيرها. وهذا له مردود اقتصادي كبير، إلى جانب خبرة جديدة اكتسبها أبناء البلاد وإعطائهم فرص عمل كثيرة في مختلف التخصصات التي تقتضيها طبيعة التوسع في الخدمات.

إن هذه التوسعة الكبرى ستحقق رواجاً اقتصادياً وتجارياً كبيراً للحركة التجارية الداخلية والخارجية، فمع ما وفرته هذه التوسعة من استيعاب لمزيد من أعداد الحجاج والمعتمرين فإن هذا يعني زيادة في إنفاق هؤلاء على السكن والإقامة والإعاشة وخدمات النقل، وهذا كله ينعكس على السوق والحركة التجارية بيعاً وشراءً وتعاملاً

مع المصارف، الأمر الذي سيؤثر على طاقة الجهاز الإنتاجي السعودي فيتجه إلى التوسع والازدهار وزيادة خطوط الإنتاج. كما سيؤثر ذلك على حركة التجارة الخارجية خاصة الواردات التي تنعش الحركة المصرفية والمالية. وهذه الحركة الاقتصادية الهائلة والتوسع التجاري الكبير كله سيؤدي إلى رخاء للمواطن السعودي ومزيد من الرفاهية لضيوف الرحمن. ولعلنا نضيف هنا أن البعد الاقتصادي لرعاية خادم الحرمين الشريفين امتدت آثاره إلى المجتمعات العربية والإسلامية التي تم تشغيل العمالة من مواطنيها للعمل في المشروعين الكبيرين وفي الخدمات المساندة لهما، والمجمعات السكنية والفندقية في المنطقتين المركزيتين وما يتبعها من خدمات، وما تم تحويله لبلدانهم من مليارات الريالات سنوياً من أجورهم مما أحدث نمواً اقتصادياً ، ومشروعات في تلك البلدان الإسلامية الشقيقة.

المصادر والمراجع

أولا: المصادر والمراجع

١ - حامد عباس: قصـــة التوسعة الكبرى (مجموعة محمد بن لادن السعودية) دار البلاغة للطباعة والنشر، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

٢ - حسين عبدالله باسلامة: تاريخ عمارة المسجـد الحرام، تهامة للنشر والتوزيع، جدة، ١٤٠٠هـ /١٩٨٠م.

٣ - سعـــود بن هذلول: تاريخ ملوك آل سعود، ط١، الرياض، مطابع الرياض، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م.

٤- عثمان بن بشر: عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق عبدالرحمن آل الشيخ، ط٢، ١٣٩١هـ، ج١.

٥ - علي حافظ: فصول من تاريخ المدينة المنورة، ط٣، شركة المدينة للطباعة، جدة ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.

٦ - عبدالعزيز محمد الأحيدب: من حياة الملك عبدالعزيز، ط٣، مطابع الإشعاع، الرياض، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

٧ - لطيفة عبدالعزيز السلـــوم: التطورات السياسية والحضارية في الدولة السعودية المعاصـــرة، ط١، العبيكان، الرياض ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

٨ - مصطفى نوري عثمان: الماء ومسيرة التنمية في المملكة العربية السعودية، ط١، تهامة، جدة، ١٤٠١هـ/١٩٨٣م.

٩ - مقبل بن عبد العزيز ابن ذكير: تاريخ ابن ذكير، مركز البحث العلمي بمعهد البحوث بجامعة أم القرى تحت رقم ١٧٣ .

١٠ - ناجي الأنصاري: عمارة وتوسعة المسجد النبوي الشريف عبر التاريخ، ط١، مؤسسة المدينة للصحافة، (دار العلم) جدة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

الدوريات والمقالات:

١- حسن الوركالي: رحلات تطوانية إلى البلد الأمين ، دورية تصدر عن نادي مكة الثقافي الأدبي، ذو الحجة ١٤١٦هـ.

٢ - د / إحسان صالح المعتاز: بحث بعنوان: تقويم النظام الحسابى بمؤسسات الطوافة بمكة المكرمة – دراسة استطلاعية – قسم المحاسبة ، جامعة أم القرى.

٣ - معهـــد الإدارة العامة: الريــاض– مركز الوثائق، قرار مجلس الشورى، ميزانية المعارف، ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م.

٤ - جريدة أم القرى: الجمعة الموافق ١٥ جمادى الأولى ١٣٤٣ه، العدد الأول.

٥ – صحيفة أم القرى، العدد ٨٦ السنة الثانية، ٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٤٥هـ .

٦ - صحيفة أم القرى: مكة المكرمة، العدد ١٨٥، وتاريخ ١٨/ المحرم/ ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م.

٧ - صحيفة أم القرى السعودية: العدد ١٩٧، ٢١/ ربيع الآخر/ ١٣٤٩هـ.

٨ - صحيفة أم القرى : العدد ٣٧٠، ٢/ جمادى الآخرة/ ١٣٥١هـ.

٩ - مجلة الأمانة: العدد الثامن الصادر في رجب عام ١٤١٤هـ، (أمانة المدينة المنورة).

١٠ - الشرق الأوسط: الثلاثاء ، ١٥ شعبان ١٤٣٤ ه/ ٢٥ يونيو٢٠١٣ م عدد ١٢٦٢٨ .

١١ - صحيفة الشرق الأوسط (لندن): ١٣/ رمضان/١٤١٤هـ/ ٢٣/فبراير/١٩٩٤م.

١٢ - صحيفة عكاظ العدد ١٣٦٧٢ الأحد ١٤٢٤/١٢/١٠ه.

١٣ - صحيفة البلاد: عدد الاثنين ٢٤رجب ١٤٣٤هـ .

١٤ - صحيفة البلاد: عدد الأربعاء ٢٤يوليو ٢٠١٣ م.

١٥ - صحيفة الندوة العدد ١٣٣٠١ الخميس ١٤٢٣/٥/٨ه.

١٦ - مجلة الرياض: الثلاثاء ٩ ذو القعدة ١٤٣٣ ه ٢٥ سبتمبر ٢٠١٢ م عدد ١٦١٦٤.

١٧ - صحيفة الوطن العدد١١٧٥ الخميس ١٤٢٤/١٠/٢٤هـ.

١٨ - صحيفة الوطن الاثنين ٢٦ شوال ١٤٢٦هـ الموافق ٢٨ نوفمبر ٢٠٠٥م العدد (١٨٨٦) السنة السادسة.

١٩ - وزارة الإعلام السعودية: عمارة المساجد الأنموذج السعودي لبناء بيوت الله.

٢٠ - مؤسسة المدينة للصحافة: ملحق خاص عن المدينة المنورة، العدد ٧٧، ١٤١٠هـ.